

عودة زرقاء اليمامة

- ١ -

توسط البدر صفحة السماء في ليلة من ليالي الصيف، وكان الضياء الفضي انعام ينهمر فوق بيوت اليمامة، ومضارب خيامها، وأشجار بسايتها المتشابكة، فتبدو في الصحراء مثل جزيرة خرافية ناذرة الجمال، وسط بحر واسع من الوهم.

وفي تلك الليلة كان مسيلمة الكذاب غارقا في لحم سجاح الكاذبة، بعد ان اولم وليمة كبيرة ذبح فيها رؤوس ضان كثيرة العدد.. واهرق فيها جرارا من الخمر القوية، وتحدث فيها شعراء اليمامة عن القوة والمنعة والسؤدد، واكلت الكلاب حتى شيعت فلم تعد تقوى على النباح حيث توسد كل واحد منها مكانا في الرمل استدفأ فيه ونام، وكان شيوخ اليمامة قد عقدوا مجلسا لمناقشة الامر.. وليحددوا من خلال مجلسهم هل هم مع السلام ام مع الحرب.. مع التسليم ام مع المواجهة..

قال واحد منهم:

- لقد ارهقتنا تكاليف المحاربين، وصار ذهبنا كله يذهب سدى في حديد السيوف والحراش والرماح... حديد نحن ندفع ثمنه ذهبنا خالصا.. لنضعه في ايدي الصعاليك والرعاة والدهماء.

وقال واحد آخر:

- ولو ان الامر اقتصر على ما ندفعه من ذهب وفضة لهان الامر.. ولكن الغلمان والمواني ورعاة الابل والماعز، اصحوا يتطاولون علينا.. بل انظروا ماذا حل بي انا.. وانا واحد منكم.. ان همام راعي ابلي.. هذا الصعلوك التعس، جاءني قبل ايام متمنطقا بسيفه، مختالا كالطاووس، جاءني يطلب يد ابنتي حسناء، يا لكم شعرت بالمذلة والعار.. ابن الجارية هذا يريد الزواج

من ابنتي انا.. هل تعرفون ماذا قلت له؟ قلت له:

- لا تنس يا هذا اني دفعت لك من ذهبي ثمن هذا السيف، واسرحت لك حصانك.

- وماذا كان رده؟

- ماذا كان رده.. هه.. ستعجبون.. لقد ظل مختالا امامي كالطاووس وقال لي:

- لا تنس ان فرسان اليمامة احق بعذارى اليمامة من جنود كسرى..

- لا والله.. لا والله.. ان كسرى اشرفلنا من ان يحكم اليمامة رعاة ابلها..

وفي تلك الليلة، كان قادة الفصائل الذين انيط

بهم ان يكونوا على رأس الفرسان لرصد حركة الاعداء..

وصدا اية مباغثة، والدفاع عن اليمامة، كان قيادة

الفصائل قد خبا كل واحد منهم في سرج حصانه دنا

من الخمر، وضرب لجارية من جواريه موعدا في احد

البساتين، بينما كان الجنود ساهرين، كان الجنود كلهم

من اهل اليمامة ولكن من نصفها الاخر، مزارعو

البساتين وحفرة الآبار، ورعاة الماعز والابل، وحراس

القوافل التجارية، وحراس البساتين، والغلمان الذين

يخدمون في الدور الكبيرة، وصناع القهوة في الدواوين

الكبيرة، وكان همام واحد منهم، شاب لم يتجاوز

العشرين من عمره بعد، قوي الجسم مليح التوجه، دمث

الاخلاق، عيناه كعيني الصقر، عندما وعى نفسه وجد انه

راعي ابل عند احد شيوخ اليمامة، وكان والده قد مات

وهو طفل صغير، كان يحرس احدى القوافل حين

هاجمتها عصابة من قطاع الطرق، كان كمينا خائفا في

وسط الصحراء، لم يتمكن من النجاة فتمكنوا منه وقتلوه

.. ولكن بعد فقدان الزوج اهتمت الام بطفلها، وكانت

تعلمه ان يكون مثل ابناء السادة، بل وافضل منهم، ولقد

حين تحديق بهما تنفذان الى اعماق القلوب وتخرقان حجب الغيب والمستقبل ..

بدأت العلاقة بين همام والعرافة التي اشتهرت باسم زرقاء اليمامة ، عندما كان صبيا اخذته امه عند العرافة وفاء لنذر قديم ، ويومها ربتت العرافة على شعره وتمتت لامه :

– سيكون لهذا الصبي شأن فيما بعد ..

ثم انه حين نجا من الذئاب وتغلب عليها ذهب عند العرافة ، ليجد عندها الطمأنينة ، هكذا نصحه الناس الذين احبوه وارادوا له السلامة دائما ...

– اذهب عند العرافة ..

– توجه عند زرقاء اليمامة ..

وذهب فعلا .. وتكرر ذهابه ، صارت العرافة تأنس اليه ، تحديق في وجهه بعينيها الزرقاوين فتنفذ الى اعماق وجدانه اليافع ، ومرة بعد المرة كانت توميء له ببعض الايحاءات والاشارات وتلقي عليه بكلمات قصار ذات مدلول عميق .. تتحدث عن الماضي ، وتنبأ له بما هو آت في المستقبل ، وفي احدى المرات قالت له :

– ان اليمامة سيؤخذ اهلها بفتة ..

فمن ينقذ اليمامة ؟

ظل واقفا قبالتها وقد اصابته رعشة ، وتملكته رغبة ملحة في ان يسمع المزيد ، ولكنها اسبلت اجفانها .. ولم تقل شيئا ، وانطوت على سرها الكبير مثلما تنطوي الصحراء الواسعة على اسرارها الازلية .

- ٢ -

كانت الخصومات بين قبائل اليمامة والقبائل الاخرى ، خصومات قديمة عميقة الجذور ، متمسدة الاسباب والدوافع .. لعل ابرزها ان ارض اليمامة كانت تحتكر الخصوبة والفتى .. وبالتالي تحتكر السطوة والجاه ، ولقد خلق ذلك مشاحنات كثيرة ، وحروربا متعددة ، وغزوات متتالية قامت بها قبائل كثيرة .. وان ذلك كله خلف وراءه جراحا لا تندمل ، وثارا لا تهدأ ، وطموحات لم تمت في قلوب اصحابها .

ومنذ فترة ليست بالقصيرة ، تواترت الاخبار ان القبائل وحدت رأيا ووحدت سيوفها لفترو اليمامة ، هكذا افاد حراس القوافل التجارية ، والرعاة الذين تم ارسالهم لمعرفة الاخبار . وهكذا افاد الرعاة انفسهم الذين انبثوا في كل مكان يؤلبون خصوم اليمامة ، ويستثيرون حقدهم ، ويشحذون همهم ..

– ان اليمامة قد باءت .. ولا بد لها ان تدفع الثمن ..

– ان اليمامة قد تجاوزت كل الحدود ، ولا بد من تقليص اظافرهما ..

ذاع صيت راعي الابل همام ، حين هاجمته مع قطيعه الذئاب الجائعة ، تمكنت في البداية من بقر بطن احدى النوق الصغيرة ، وحينئذ هيئها الدم اكثر ، فصارت تمر من بين اقطيع مثل مروق السهم الخاطف ، وكاد القطيع يهلك لولا ان تمكن همام من قتل ثلاثة ذئاب ، مما جعل بقية الذئاب تهتم بتمزيق اجساد قتلاها ، ويتمكن مع قطيعه من النجاة .. يومها ذاع صيته كاشجع الشباب ، وجعله هذا يأخذ ثقة في نفسه الى الحد الذي يتبارى مع اولاد الشيوخ في المبارزة ، ويمزق قمصانهم عن لحم صدورهم ، ويطيير من ايديهم سيوقهم في الرمل ، ويجعلهم يحتقنون خجلا ..

ولقد احبته حسناء التي هي من المفروض ان تكون مولاته .. نعم احبته ، ولطالما منحته نظرة وهي خارجة من خباثتها ، او ارسلت صوتها يمسح على قلبه عندما تنادي على صويحباتها .. بل انها تجرات ذات يوم في غفلة من عيون المراقبين وانشدته ابياتا عذبة من الغزل الرقيق ، اوضحت له فيها انها تحبه وتمناه رجلا لها من بين كل رجال اليمامة .

ولكن هذا المجد الذي مني به همام ، لم يجعله لحظة واحدة يتعد عن ابناء الموالي امثاله ، ورعاة الماعز والابل ، ومزارعي البساتين ، وحراس القوافل الذين يفقدون حياتهم ، لقاء دراهم قليلة ، بل وربما مقابل بضع كلمات من الاستحسان يلوكها لهم صاحب القافلة .

ظل همام وفيما لهؤلاء .. وكانوا يقولون له :

– يا همام : انت فخرنا جميعا ..

بل ان همام الفارس الشجاع ، ذهب الى ابعد من ذلك ، حين صار يكثر من التردد على العرافة ، امرأة يتحدث عنها الفقراء برهبة وقداسة واحترام شديد ، اتخذت لنفسها مكانا قصيا عن القوم ، واختلف الناس في امرها .. منهم من يقول :

– انها تعرف لغة النجوم ..

ومنهم من يقول :

– انها تضرب في الرمل ..

وآخرون يقولون :

– ان روحا تملكها فتخبرها عن الحقيقة ..

اما شيوخ اليمامة وجواربها فكانوا يقولون عنها :

– انها امرأة مخبولة .. اصابها مس من الجنون ..

ومهما يكن فان اكثرية الناس كانوا يذهبون اليها ، يستشيرونها في الزواج ، ويستخيرون بركتها في الانجاب ، ويستقون الطر بدعوات يرتلونها حول خيمتها حين يتأخر سقوط المطر .. ويستبشرونها في السفر وفي كل ما يتعلق بالمجهول .. امرأة متشحة بالسواد ، لا يظهر منها سوى عينيها الزرقاوين اللتين

— ان اليمامة تقف في طريق احلامنا المشتركة .

ولقد كان واضحا ان هذه الغزوة تختلف عما تعرضت له اليمامة من غزوات سابقة ، فان شيوخ القبائل الذين كانوا متخصصين قد اصلحوا فيما بينهم ، وكثرت الجولات ، بل ان مؤتمرا سريا عقده رؤساء قبائل بكر وتغلب وتميم رعاه المناذرة قد تقرر فيه كل شيء ، وها هي العرافة .. ها هي زرقاء اليمامة تلقي بالنبوءة وتعلن الصيحة ..

— ان اليمامة سيؤخذ اهلها بفتة ..
فمن ينقذ اليمامة ؟؟

لقد سمع الناس بالصيحة .. وعلموا بامر النبوءة .. فتقاطروا من كل حذب وصوب الى العرافة يستزيدونها ايضا ، يسألونها النصيحة فيما عزم فاعلون ، صحيح انهم هم الجوعى والمتعبون .. وانهم اذا وقع الغزو لا يخسرون سوى خيامهم وذلمهم .. ولكن كما قال لهم همام ذات مرة :

— ان اليمامة ستكون لنا في مستقبل الاسباب ..
روينا ارضها بالدم .. ونزفنا عرقنا ليكون الخصب ..
ومستقبلنا في هذه الارض .. اننا ندافع عن المستقبل .

وكان لحماس الناس وضغطهم المتزايد اثر كبير مما جعل شيوخ اليمامة يرضخون مكرهين ، فيجندون الجند ، ويشترون السيوف والرماح والحراب ، ويسرجون الخيول ، ويستهلكون مقادير كبيرة من الحنطة ، ويذبحون الخراف والابل لاطعام المحاربين الساهرين ، كما ارسلوا بعض ابنائهم ليكونوا قادة للفصائل . ووقع الاختيار على همام راعي الابل السابق ، ليكون على رأس قصيل في الكمائن الاولى ، وكان كل يوم جديد يأتي يؤكد اقتراب المعركة فيزداد حماس الناس ، وتزداد أهمية المحاربين والسلاح ، بل انه عندما بدأت المناوشات ووصلت اخبارها ، وكان يأتي شهيد او جريح ، كان الناس يخرجون يحتفلون به ، يقرضون الاشعار ، ويؤلفون الاغاني ، ويمنحون للابطال ثقتهم المتزايدة ، بل لقد وجد همام ذات يوم ، ان الفصيصة التي يقودها هي اكبر الفصائل ، فلقد كان اسمه مثارا للفخر ، وكثيرا ما كان يصل اليه شباب صفار السن ، حفاة او على ظهور خيولهم يقولون له :

— جئنا نحارب معك ..

— جئنا لنكون تحت امرتك ..

— اوصانا الاهل الا نكون الامعك ..

شباب من كل اطراف اليمامة ، ومن مختلف قبائلها وعشائرها .. وكان كل ذلك يثير حفيظة شيوخ اليمامة ، ويوشك ان يفقدهم الصواب ، وهكذا واصل الشيوخ الحائقين مجلسهم في تلك الليلة التي توسط البدر فيها صفحة السماء .. قال رئيس المجلس :

— ان الامر الذي ذكرتم صحيح .. ولكن هناك ما هو

اخطر منه ، واعني بذلك ان الناس في اليمامة قد افتتنوا بهؤلاء الذين جعلنا منهم فرسانا ، كما ازداد الناس ولعا بالخيل والسلاح ، ولعمري يا شيوخ اليمامة اننا سنواجه الصعوبات ..

وها انذا اسألکم :

— من منكم يستطيع ان يقف قسي وجه هؤلاء ان جاءوا الينا منتصرين ؟ من منكم يستطيع ان يقول لهم عودوا مثلما كنتم رعاة .. وخذما في الدواوين ؟؟

كان الرجل يتحدث بانفعال كبير ، وقد اطبق الصمت ، وجفت الحلق ، واشتعلت العيون بالحقد ..

وواصل رئيس المجلس حديثه :

— ان مجلسنا المحروس ببركة الالهة ، لم يجتمع لكي نسرود على مسامع بعضنا ما اصاب كلا منا من الاذى .. فهذا امر نعرفه ونعيشه في كل لحظة .

ولكن مجلسنا اجتمع لنجد الحل .. وانا اسألکم جميعا :

— ما هو الحل الذي ترون وتقدرون ؟

وفي تلك الليلة حدث ارتباك في صفوف جنود اليمامة الموجودين في مخافرهم وكمائنهم ومغارزهم ، وعلى ظهور خيولهم ، فلقد اندس بينهم من يظفي رغبتهم في المواجهة والقتال .

— لماذا نموت هدرا ..؟

— الاعداء ذهبوا من حيث اتوا ..

— لن يكون الا الصلح ..

— لتتريث بدل ان نركب رؤوسنا ..

ولقد نجح المندسون فعلا .. فقد تمزق الاستنفار ، وتمييع الحماس ، وعادت كثير من السيوف الى اغمادها ، وترك كثير من الفرسان اعنة خيولهم فهامت على وجهها في الصحراء .. بل ان عدوى ما حدث كادت ان تصل الى الكمائن الاولى حيث همام على رأس قصيله ، قدار على رفاقه في كل المواقع يشرح لهم الامر ..

— ان من يقبحون القتال في عيونكم ، لا يشفقون عليكم بل يخافون منكم .. سنقاتل ما وسعنا ذلك .. ولتتذكروا .. ان تخلينا عن سيوفنا ، سنعود الى عصا الرعاة ، ان تخلينا عن اعنة خيولنا ، سنزرع تحت نيسر الذل ..

وفي تلك الليلة ، تركت زرقاء اليمامة خيمتها المنزوية ، وذهبت الى الشيوخ في مجلسهم ، قاجاتهم مثل الضمير اليقظ :

— اني ارى الاعداء قادمون .. اراهم ببصري وبصيرتي ، يتسترون بافرع الشجر ، واطياف الليل ، وستائر الخدعة .. اني ارى الاعداء قادمين .. فلا تفرطوا ..

ولكن الشيوخ كانوا قد تواطأوا .. تصايحوا فسي وجهها وهم يدفونها من مجلسهم كأنما يدفون شرا ..
- يا لك من امرأة مخبولة .. اغربي عن وجهنا ..
اذهبي الى الرعاع اما نحن فلا نصدقك ..

وانطلقت العرافة تطوف بين القوم :

- يا اهل اليمامة .. اني اري الاعداء قادمين ..
لن يكون الفجر حتى يصلوا .. كونوا حذرين حتى لا تؤخذوا بفتة .. الاعداء قادمون ..

كان صدى صوتها تحمله الريح .. ويسري في الليل بلا توقف .. فاندفع الكثيرون الى مواقع يقاتلون فيها ، وكانت قد وصلت الى حسناء رسالة من همام ان تترك القباء الى مكان بعيد ان هي ارادته ، فتسللت مع الزحام ومضت الى حيث يريدونها ..

ولقد هبط الاعداء عند الفجر ، هبطوا كالجراد ، واختلط الفجار مع دخان انخيام المحترقة ، مثلما اختلط صليل السيوف مع صرخات الذعر والسبي ، وامتزجت الدماء والاشلاء بالرمال ، ورفعت اليمامة راية التسليم ، وكان همام ورجاله هم وحدهم الذين حاربوا .. لكنهم حين وجدوا الامر مطبقا من حولهم .. قرروا الاحتفاظ بانفسهم وسلاحهم وخيولهم تجولات اخرى ، وكان هذا اتفاقا فيما بينهم ، كل مفرزة من جنود همام اتجهت الى مكان معين في الصحراء .. انظروا لما سوف يحدث ، واعدادا للامور من كل جوانبها ، فلقد وقعت اليمامة في الاسر ، ولكن الصحراء الواسعة ما زالت تحتفظ باسرارها .. وما زال المدى الفسيح مملوءا بالخييل والسلاح والفرسان ..

- ٢ -

كان اول شيء فعله انغزة حين وصلوا ، انهم بحثوا عن همام فلم يجدوه ولم يجدوا من يدلهم عليه ، وانهم بحثوا عن زرقاء اليمامة ، فوجدوها ، وجاءوا بها الى ساحة كبيرة جمعوا فيها الناس واشعلوا في الوسط نارا عظيمة .

قال قائد الجند :

- ايتها العرافة التي كنت تؤلبن علينا ، وتحرضين ضدنا .. نريدك ان تدلينا اين همام ؟

كانت زرقاء اليمامة مقيدة الذراعين والساقين وجنود غلاظ يمسكون بها .. ولكنها لم تتحدث شيئا ، فعاد قائد الجند يلح عليها ، لكنها اكتفت بالصمت ، وحدثت فيه بعينيها فاحس كأن سهامها نارية تخترق احشائه ، فاستشاط غضبا .. وقال يخاطب الجمع :

- عرفتكم هذه .. لن ترى بعد الان شيئا ، سنسمل عينيها بالنار جزاء لتكون عبرة للجميع ..

واعطى قائد الجند اشارة من يده ، فتقدم من العرافة اثنان من الجنود ، كل واحد يحمل في يده حربة محمأة في النار ، متوهجة الرأس . اقترب الفارسان حتى كادت رؤوس حربتيهما تلامس عيني المرأة .. ثم بكل ما اوتيا من قوة غرسا حربتيهما في عينيها .. واغض الناس عيونهم من قسوة اللحظة ، وتصيب اجسامهم عرقا من وطأة المشهد الفظيع ، لكن ضياحهم بدأ يتعالى ، فلقد حدثت المفاجأة ، انطرح الفارسان ارضا ، وطار من يدهما الحربتان وانفرستا في الرمل امام الجميع ..

وعاد قائد الجند يصرخ :

- قطعوها اربا .. مزقوا لحم هذه المرأة الشريرة ..

والثف انجند من حولها ، تناوشوها بسيوفهم وحراهم وخناجرهم ، تمزقت ثيابها وسقطت عن صدرها ، ولكن المفاجأة كانت اعظم ، تفوص السيوف والحراير والخناجر في لحم العرافة ، تقطعه ولكن ما ان يستل الواحد خنجره بعد الطعنة حتى تنبثق من مكان الطعنة عين جديدة ، وتظل المرأة منتصبة كأنها علامة تصل الارض بالسماء .

انهار قائد الجند ، وانكفا فوق الرمل لا تقوى ساقاه ان تحمله ، وفرك شيوخ اليمامة لحاهم في قلق بالغ ، خشية ان يعود الامر وينقلب ضدهم ، وتماوجت الجموع وهي تهمهم ثم تعالى هتافها وكاد يفلت الزمام ، لولا ان انبعث صوت :

- لن تقتلها سيوفكم ..

- هذه المرأة يكمن سرها ، في ان الذين يستطيعون قتلها هم قومها انفسهم ..

- دعوا شيوخ اليمامة يقتلون عرفتهم ..

استفاق قائد الجند من غيبوبته على صدى الصوت ، فهب واقفا على قدميه ، وصرخ في شيوخ اليمامة ان يقتربوا .. اعطى كل واحد منهم سيفا وقال لهم :

- هذا دمكم فلتسفكوا دمكم .. هذه لعنتكم .. فلتحملوا لعنتكم .. هيا اقتلواها ..

وتناوشتها سيوفهم ، كان دمها ينتشر على وجوههم فيجف بسرعة من وهج النار المتقدة ، وما هي الا هنيهة ، حتى تمزق جسد العرافة ، ونزفت كل دماها ، وهوت فوق رمال اليمامة وتحت سمائها ، جثة هامدة بلا حراك ..

وفيما بعد ،

عندما ظهر الفرسان المختفون ، وبرز السلاح الذي كان مخبأ تحت الجلد ، وصهلت الخيول التي كانت متوارية في اطراف الصحراء .. فيما بعد ،

لم يستطع شيوخ اليمامة ان يمسحوا عن وجوههم ذلك الدم المتجمد ، وكان ذلك هو العلامة التي تميزهم ، كانت خيانتهم مطبوعة بالدم على وجوههم .. حين جاء موعد العقاب ..